

المخطوط العقدي في سبته خلال القرن الثامن الهجري "الاستدلال على بعث الأجسام
بأعيانها" لابن مخلص أنموذجاً

د/ عبد الصمد بوذيّاب

جامعة القرويين فاس

salmanboudiab@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/11/11، تاريخ القبول 2019/11/29، تاريخ النشر 2019/12/31

الملخص: الاهتمام بالمخطوط العقدي والكلامي في المغرب العربي والشمال الإفريقي.. له أهمية كبيرة في معرفة ماهية هذه المخطوطات وأهميتها، فهي دليل مادي ملموس لشرح حيثيات الدرس العقدي والكلامي والفلسفي.. والتعريف بأهم الأعلام والمؤلفات التي كانت لها الحظوة في زمان المخطوط، كما يبين أيضاً أهم القضايا والإشكالات التي كانت تشغل الفكر العقدي الكلامي والفلسفي.. أنداك. وفي هذا البحث ذكر للمخطوط المذكور أعلاه، وهو عبارة عن دراسة لمسألة "بعث الأجسام" وإشكالاتها الكلامية في الغرب الإسلامي في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجري، لأحد أبرز علماء هذه الفترة، وهو أبو القاسم ابن مخلص السبتي (كان حياً 812 هـ) رحمه الله تعالى.

الكلمات المفتاحية: سبته، الاندلس، المخطوط، العقيدة، ابن مخلص.

Summary:

The interest in doctrinal and verbal manuscripts in the Maghreb and North Africa is of great importance. They are tangible physical evidence that shed light on the rationale of the doctrinal, verbal and philosophical conception. They also help explain the problematics about ideological, verbal and doctrinal beliefs.

In his research, Abu Al Qasim Ibn Mukhlis Al Sabti who is one of the most prominent contemporary scientists (end of 8th C.H and beginning of the 9th Century.H), talked about the issue of "Resurrection of bodies" and its verbal problematics in The Islamic West.

Key sentences: Ceuta, Andalus, Creed, The manuscript, abn mukhalas.

مقدمة: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحابه أجمعين والتابعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،

كان للدرس العقدي في سبته في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجري إشكالاته ومفرداته المتعددة، التي فرضتها سقوط حواضر أندلسية عدة، وعودة العقيدة الصليبية للتشويش مجدداً - لا سيما - على عوام الناس وبسطائهم، مما فرض على علماء تلك الحقبة وأهل الشأن فيها، التفاعل مع تلك الإشكالات والإجابة عنها، وبيان الشبهات العقدية وإزالة لبسها، بأساليب سهلة وميسرة، يقتدر بها الجميع على تحصين العقيدة ودفع الشبهات عنها..

تلك الإشكالات والسجلات حفظتها لنا مخطوطات العقيدة وعلم الكلام، فحفظ لنا بذلك جزء هام من التاريخ العقدي لتلك الحقبة، ومن ذلك مسألة "بعث الأجسام" وما أثارته من تساؤلات بين من يرى أن بعثها يكون مع الروح، وبين من يعتقد أن البعث سيكون للروح في أجسام أخرى..

وهذه المسألة وإن كان معروف حكمها في الدرس العقدي الإسلامي عموماً؛ لتناول موضوعها من قبل جل مفسري القرآن الكريم عند حديثهم عن آيات البعث والنشور، وتناوله - أيضاً - من طرف العقديين والمتكلمين في الغرب الإسلامي، لا سيما في الضفة المقابلة لسبته - الأندلس - كما هو الحال مع ابن حزم في "الفصل في الملل والنحل"؛¹ إلا أن المخطوط الذي بين أيدينا يشير إلى أن تغلب الصليبيين وعودة سيطرتهم على الأندلس.. أعاد إحياء هذه المسائل في القرن الثامن الهجري ودفع بها إلى واجهة النقاش العقدي والتفاعل الكلامي من جديد.

(1) ذكر ابن رحمه الله ذلك تحت عنوان "الكلام في القيامة وتغيير الأجساد" وقال في الموضوع: "اتفق جميع أهل القبلة على تناوب فرقهم على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك، ومعنى هذا القول: أن لمكث الناس في دار الابتلاء التي هي الدنيا أمداً يعلمه الله تعالى، فإذا انتهى ذلك الأمد، مات كل من في الأرض، ثم يحيى الله عز وجل كل من مات مذكراً لخلق الله عز وجل الحيوان إلى انقضاء الأجل المذكور ورد أرواحهم التي كانت بأعيانها، وجمعهم في موقف واحد، وحاسبهم عن جميع أعمالهم، ووفاهم جزاءهم، ففرق من الجن والإنس في الجنة، وفرق في السعير، وبهذا جاء القرآن والسنة" الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (4/137). تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثانية، 1416هـ 1966م

وكان من الذين اهتموا بهذا النقاش وتفاعلوا معه، أبو القاسم بن مخلص السبتي، الذي كتب في الموضوع وخصه بالتأليف، في هذا المؤلف الذي بين أيدينا، وهو مؤلف: "الاستدلال على بعث الأجسام بأعيانها" (1).

فمن هو ابن مخلص السبتي وما سياقه الزماني والفكري..؟

وما الذي دعاه للتأليف في موضوع بعث الأجسام؟

وما مضمون الكتاب ومنهج وطريقة المؤلف فيه؟

ذلك ما سأحاول الإجابة عنه - إن شاء الله تعالى - من خلال محوري هذا البحث، حيث سأعرض في الأول لما يتعلق بالمؤلف وسياق زمانه.. وفي الثاني: لما يتعلق بالمؤلف وسياق تأليفه ومضامينه..

المحور الأول: ابن مخلص السبتي وسياق زمانه العلمي والفكري والسياسي.

عُرفت سبته المغربية⁽²⁾ بنبوغ أهلها في مختلف المجالات العلمية والمعرفية، وعلى رأسها العلوم الشرعية واللغوية والكلامية وغيرها من المعارف الإنسانية، فذكر في الآفاق اسمها وعلا في العالم صيت علمائها، من الأدباء

1 لم يكتب على المخطوط اسم واضح له، لكن يمكن بسهولة تحديد عنوانه من خلال مضمونه، إذ صرح المؤلف - رحمه الله - أكثر من مرة بما يفيد اسمه، فقال في المقدمة "إني سمعت عن بعض من ينتحل العلم أنه نقل في مجلس تدريسه عند كلامه على البعث أن كفيته: بعث أجسام آخر غير هذه فكساها الروح وتعذب فيها أو تنعم، أعادنا الله من زلة عالم فإنها تضل كثيراً من الناس"، كما عنوان الفصل الثاني بقوله: «فصل في الاستدلال - أيضا - على بعث الأجسام بأعيانها». فمن خلال هذا التعبير للمؤلف ومن خلال تتبع مضامين الكتاب أمكننا عنوانه بـ "الاستدلال على بعث الأجسام بأعيانها". وقد ذكره الدكتور خالد زهري في كتابه: "المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية" المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية " ص 268. إصدارات مركز أبي الحسن الأشعري بتطوان، التابع الرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى: دار الأمان، 1438 هـ 2017م باسم "الرد على منكر بعث الأجسام بعد فنائها" وذكر أن الشيخ محمد المنوني ذكره بالعنوان نفسه، وهو اختيار له وجاهته، ولكن يظهر أن اسم "الاستدلال على بعث الأجسام بأعيانها" هو الأرجح والأنسب، والله أعلم.

(2) سبته من مدن أقصى الشمال المغربي، الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، وهي من أقدم المستعمرات العربية والإسلامية في العالم، فقد احتلها البرتغاليون سنة 897هـ، وبذل سلاطين المغرب وملوكه جهداً في استرجاعها، وحاصروها أكثر من مرة - لاسيما المولى إسماعيل - (1672 - 1727م)، لكن طبيعتها الجغرافية حالت دون استرجاعها، ثم لما كان الاحتلال الإسباني للشمال المغربي عقب ما سمي بمعاهدة الحماية (1912م)، كان المغاربة أثناء هذه الفترة يذهبون إلى سبته كأى مدينة من المدن المغربية الأخرى، غير أنه بعد زوال الاحتلال بقيت هذه المدينة بيد الإسبان ورجعت الحواجز بينها وبين باقي مدن الوطن. نسأل الله أن

والمؤرخين والقضاة والرحالة المشهورين كابن رُشيد السبتي والعالم الجغرافي الشريف الإدريسي وغيرهم، وعلى رأس أولئك الأعلام القاضي عياض الذي اقترن اسمه بها وبالمغرب أكثر من غيره، حتى قيل: "لولا عياض لما ذكر المغرب".

ساعد في أن كانت سبته من الحواضر العلمية العالمية، موقعها الجغرافي الحدودي على ضفتي المتوسطي، وكونها من الحصون الجهادية والثغور ذات الرباطات العلمية التي تستهوي الطلاب من مختلف الفنون المعرفية، فكانت الحركة العلمية بها على مدار الأيام نشطة ومتجددة، مما جعل المؤرخين يصفونها بـ"خزانة كتب العلوم والآثار المنبئة عن أصالة العلوم.."،⁽¹⁾ ويقولون عن أهلها وتعلقهم بها: إنهم "لا يفضلون على مدينتهم مدينة. الشك عندي في مكة والمدينة".⁽²⁾

بالإضافة إلى ذلك، كانت سبته بؤابة العبور بين الحواضر الأندلسية والمغربية كغرناطة وفاس وما يليهما غرباً وشرقاً من مدن أندلسية ومغربية وإفريقية وغيرها.

ابن مخلص وسياق الولادة والنشأة.

في ظل ذاك السياق المزدهم بالتدافع العلمي والمعرفي وتبادل الخبرات الرحلات؛⁽³⁾ ولد ابن مخلص ونشأ وترعرع ودرس وتعلم وصنف وألف.. مجيئاً عن إشكالات عصره ومتفاعلاً معها، فكان من أوائل الذين أسهموا في

يعجل برد مدينة ابن مخلص و القاضي عياض وغيرها لحضيرة الوطن المغربي والعربي والإسلامي. وللاطلاع على ملخص موجز عن تاريخ سبته الماضي والقريب ينظر: مقال "سبته في تاريخ المغرب القديم والحديث" من مجلة دعوة الحق العدد: 27.

(1) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقرئ، ج 01 ص 32. تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1358 هـ 1939م.

(2) المرجع نفسه.

(3) من الرحلات المشهورة التي كانت في زمن ابن مخلص والزمن القريب منه: رحلة ابن خلدون (ت 808هـ) "عناية: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004م، ورحلة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله النميري المعروف بان الحاج الغرناطي (ت 774 هـ)، ورحلة أبي الحسن علي بن القرشي القلصادي (ت 791 هـ) وغيرها، وللاطلاع على المزيد من الرحلات: ينظر كتاب: وقات عن حضارة المرينيين لمحمد المنوني ص 256، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 1420 هـ 2000م، وبحث: الرحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم

تزايد الاهتمام بالعقيدة وعلم الكلام في زمن المرينيين وتبسيط معانيه وأحكامه وتقريب مسأله من عموم الناس⁽¹⁾ ومن ذلك اهتمامه بمتشابه القرآن، وبيان معاني الأسماء والصفات، والمشكل من الآيات التي على ما يبدو أن أسألتها كانت ملحة في الواقع السبتي، وتحتاج إلى الإجابة والبيان العلمي.

إن اسم المؤلف ونسبه - رحمه الله - كما كتب ناسخ المخطوط الذي بين أيدينا على ورقته الأولى هو : "الشيخ الفقيه الأجل الأكمل أبو القاسم ابن مخلص" و هو كما كتب المؤلف بخط يده في آخر مؤلفه الآخر "أدلة التوحيد والتبوة والبعث من آيات القرآن المكسبة للقلب مزيد الإيمان والإيقان" هو : "قاسم بن محمد بن أحمد بن عبد الملك بن مخلص"، وهو كما قال ناسخ كتابه الآخر : "أنجح الوسائل في شرح الشمائل": هو "الفقيه الشيخ الإمام الحبر الهمام القدوة سيدي أبو محمد قاسم بن محمد المدعو بأبي البركات أحمد بن عبد الملك بن مخلص"⁽²⁾.

أما عن تاريخ الولادة والوفاة، فلم تذكر لنا كتب التراجم والبرامج والطبقات شيئاً عنه، ولعل السبب راجع - لاسيما فيما يتعلق بغياب تاريخ الوفاة - إلى المهرج والمرج الذي وقع مع سقوط سبته قريباً من زمانه، في يد الاحتلال البرتغالي سنة 897هـ فضاء خبره كما ضاعت أخبار غيره.

غير أنه بالاستقراء والمقارنة يمكن أن نحمن زمن ما بين ولاته وتعليمه وتعلمه ووفاته؛ ذلك أن المؤلف - رحمه الله - أخبر في آخر كتابه "أدلة التوحيد" أنه انتهى منه عام 812هـ وبما أن سن التأليف - لاسيما في التفسير - يكون في الغالب بعد الثلاثين؛ فإنه يمكن القول - تجوزاً - بأنه عاش في الفترة ما بين (775 - 855

من ق 3 إلى 9 هـ لأمنة سليمان البدوي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية. والاجتماعية المجلد 41، العدد 02 السنة 2014م.

(1) النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ص 189. الطبعة الثانية 1962م بدون اسم دار النشر.

(2) اللوحة الأولى من "أنجح الوسائل في شرح الشمائل للترمذي"، لابن مخلص، مخطوط بخزانة المسجد الأعظم بوزان، رقم : 284،

(هـ) أو أقل أو أكثر بقليل، وفي كل الأحوال فإن علمنا قد ولد وعاش في ظل الحكم المريني لسبته بعد إزاحة العزفيين نهائياً عنها (728هـ).⁽¹⁾

ابن مخلص السبتي وسياق زمانه الفكري والسياسي ..

أسهم تسليم سبته العزفيّة سلمياً للمرينيين في استمرار ما كانت عليه الحركة العلمية في الزمن العزفي المشهود،⁽²⁾ فاستفاد ابن مخلص وأقرانه وأتراب زمانه من ذلك، كما استفاد من الإرث العلمي والحجّاجي بالأندلس، فكان الزمن الذي عاشه ابن مخلص امتداداً للزمن الذي كان فيه أبو حيان الغرناطي (ت 745 هـ)، وابن جزري (ت 741 هـ)، وابن فرحون (ت 751 هـ) وغيرهم، فخالط ابن مخلص تلامذتهم وأفادوا منه وأفاد منهم.⁽³⁾

أما معاصروه فكان على الضفة الأندلسية الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت 790 هـ) و لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 هـ) وصديق هذا الأخير عبد الرحمان بن خلدون (ت 808 هـ) الذان تردّدا كثيراً على سبته أثناء تنقلهما بين الضفتين.⁽⁴⁾

أما في المغرب فقد عاصره كل من الشيخ زروق (ت 899 هـ) وأبو عبد القوري (ت 872 هـ) و أبو العباس القباب (ت 778 هـ)، وغيرهم.

(1) للإطلاع على المرحلة التي سبقت ولادة ابن مخلص والحركة العلمية في العهد المريني عمومًا والقرن السابع خصوصًا ينظر: "كتاب الحركة العلمية بسبته خلال القرن السابع" لإسماعيل الخطيب، وكتاب "ورقات عن حضارة المرينيين" لحمد المنوني، و"بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيما كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ"، محمد بن القاسم الأنصاري السبتي.

(2) للاستزادة عن العزفيين والعلم في زمانهم ينظر: "كتاب الحركة العلمية بسبته خلال القرن السابع"، إسماعيل الخطيب.
(3) للإطلاع على أعلام هذه المرحلة ينظر: "نفع الطيب للمقري"، ج 8 ص 28، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1968م.

و"الإحاطة في أخبار غرناطة"، لسان الدين ابن الخطيب ج 3 ص 20، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424هـ. و"الديباج المذهب" لابن فرحون، ج 2 ص 139. ابن فرحون، تحقيق: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة بدون تاريخ.

(4) ينظر للاستزادة كتابهما: "الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، و"رحلة ابن خلدون".

وبقدر ما تفاعل ابن مخلص إيجاباً مع محيطه وأفاد واستفاد من غيره، بقدر ما تأثر سلْباً بذلك المحيط وما عرفته تلك الفترة من سقوط عدد من الممالك الأندلسية التي لم يبق منها إلا غرناطة وما جاورها، بالإضافة إلى الشغب الفكري والعقدي الذي كثرت مظاهره من قبل النصارى واليهود، فاضطر المسلمون للدخول معهم في مناظرات وردود.. و من ذلك كتاب: "السيف الممدود في الرد على أحبار اليهود" لعبد الحق الإسلامي (ق 8هـ) الذي طُلب منه الرد عليهم؛ لكونه الأقدر في الإجابة عن شبهاتهم، بحكم ماضيه في دينهم.⁽¹⁾

أما داخل الحقل الإسلامي والملة الواحدة فقد عرفت المرحلة سجلات ومناظرات عن البدع والمحدثات.. أفرزت أمثال كتاب "الاعتصام" للإمام الشاطبي، ومؤلفات أخرى في الاجتهاد والتقليد، ومناظرات في العمل بظاهر النصوص أم بالمقاصد والمآلات، مع ظهور جماعات جهادية وعلمية للدفاع عن الأندلس، و محاولة رد ما سقط في أيدي الصليبيين من مدنها..⁽²⁾

ابن مخلص السبتي وتراثه العلمي..

لقد عاش ابن مخلص -رحمه الله- في هذا السياق المتقلبة رياحه الغربية والشرقية، المتلاطمة أمواجه المتوسطية والأطلسية، وبحكم علمه ومكانته.. لم يكن ليتفرج على هذه الأحداث دون إسهام علمي وفكري

(1) يحكي عبد الحق الإسلامي سياق ذلك فيقول: "ولما قدر الله سبحانه وتعالى بما قضى به علي من الإسلام والدخول في دين خير خلقه عليه السلام، أشار علي بعض طلبة مدينة سبته أعزهم الله تعالى وحرسها، أن أولف جزءاً في بيان ما هم عليه اليهود لعنهم الله تعالى من الضلالة والكفر الشنيع والشرك بالله البشيع، وما هم يعتقدونه من الكذب المحض في إنكار نبوة سيدنا ومولانا محمد -صلى الله عليه وسلم، فيكون إن شاء الله تعالى ماحياً لاعتقادهم محواً لآثار فسادهم، وأنا استعنت بالله تعالى الذي لا إله إلا هو على ما أشير به علي، مع قصد التقرب إلى الله تعالى، مستدلاً عليهم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة، مما يدل على فساد عقولهم ويؤذن بجراحتهم وعدم أدهم (في مقولهم)، واقتصرت على ما في كتبهم المبدلة، مما لا يسعهم إنكاره ولا النزاع فيه بوجه ولا حال، فيكون أنكد لهم وأبلغ في الحجة عليهم وأحرى في الاستدلال". "الحسام الممدود في الرد على اليهود". ص 26-27. أبو محمد عبد الحق الإسلامي المغربي السبتي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ 2001م.

(2) ينظر: ورقات عن حضارة المرينيين، محمد المنوني، ص 393 - 425. منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 1420 هـ 2000م.

تدافعي، فاشتغل بالعقيدة ورد الشبهات، وتصحيح الأفكار عن الله وعلاقة الإنسان به في الحياة وبعد الوفاة، كما اشتغل بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشماله، وبيان فضله وقدره ومقداره..

علماً أن تصدر التأليف -لاسيما في مثل هذه البيئة العلمية- لا يلجأ إليه إلا ذوو العلم والمكانة، والخبرة والمُكنة، وإلا كان الإهمال والنسيان مصير ما كتبوا وألفوا، فلا يُحفظ وينقل ويوزع بين خزائن المغرب العامة والخاصة في ظل سقوط سبته وخرابها وتنصيرها؛ إلا ذا المنفعة الوافرة والفائدة الكبيرة، كما هو الحال مع مترجمنا وأعماله رحمه الله تعالى وتقبل منه.

1. إن مما لا شك فيه أن عالمنا له أعمالٌ غير التي وصلتنا، ولعل الزمان يجود بها قريباً إن شاء ربنا، إذ لا تزال سبته بحاجة إلى مزيد بحث وتنقيب عن آثارها وآثار علمائها، وما كتب وطبع ونشر عنها غير كاف ولا يعطي الصورة الواضحة لما كانت عليه المدينة من تقدم فكري وحضاري وعلمي،⁽¹⁾ ولكن ما وصلنا منه كاف في الدلالة - كما سبق - على فضل ابن مخلص وعلو كعبه العلمي، فبالإضافة إلى هذا المخطوط العقدي "بعث الأجسام" الذي سأفصل الكلام عنه في المحور الثاني بإذن الله- فقد وصلنا من أعماله شرح الشمائل الحمدي للترمذي بعنوان: "أنجح الوسائل في شرح الشمائل"، ولأهمية هذا الشرح وقيمته توجد نسخه في خزائن عدة خاصة وعامة،⁽²⁾ كما وصلنا من أعمال ابن مخلص -أيضاً- تفسيراً فريداً خصه المؤلف لآيات أحكام

(1) الحركة العلمية بسبته خلال القرن السابع، إسماعيل الخطيب، ص 2. مكتبة الهداية تطوان، الطبعة الثانية: 1432هـ 2011م.
(2) منها: نسختان محفوظتان بخزانة المسجد الأعظم بوزان، الأولى برقم: 284 مكتوبة بخط مغربي مبسوط، بيد ناسخها محمد بن محمد بن أبي القاسم بن عمر الفيلاي الهواري بتاريخ ذي القعدة 999هـ في 164 لوحة، وهي تامة وعلى العموم سليمة، والثانية برقم: 283 وينقصها حوالي ثلاثة أوراق من بدايتها، مكتوبة بخط مغربي مجوهر، بيد ناسخها أحمد بن محمد بن يوسف العاجي بتاريخ ربيع الثاني 997هـ وعدد لوحاتها: 139. للمزيد ينظر: الفهرس الوصفي لخزانة المسجد الأعظم بوزان، ص 255-256. إنجاز بدر العمراني ومحمد سعيد الغازي بإشراف عبد اللطيف الجيلاني منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. بالمغرب الطبعة الأولى 1429هـ 2008م. كما أطلعني الأستاذ الباحثة خالد السباعي على نسخة جميلة تحتوي عليها خزانته.

العقيدة على غرار تفاسير آيات أحكام الشريعة، وهو بعنوان: "أدلة التوحيد والنُّبوة والبُعْث من آيات القرآن المُكسبة للقلْب مزيد الإيمان والإيقان".¹

المحور الثاني: مخطوط "بعث الأجسام" ومضامينه ومصادره وأهميته.

للمخطوط أهمية كبيرة؛ إذ من خلاله يمكننا إضاءة جوانب عدة من زوايا الدرس العقدي في النصف الثاني من القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجري، وبيان كيف كان التفاعل معها ومعالجتها والإجابة عنها..

وصف المخطوط والتعريف به.

تتكون النسخة المخطوطة الوحيدة المتوفرة لحد الآن ضمن محفوظات الخزانة الحسنية بالرباط،⁽²⁾ من ثلاثة وسبعين (73) لوحة، وهي تامة وسليمة، ونسخت بخط محمد بن محمد بن أبي الفضل محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي، وذلك في بداية العقد الثاني من القرن التاسع الهجري،⁽³⁾ بخط مغربي مبسوط جميل و مقروء بَيِّن.

يبتدئ المخطوط بـ "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

قال الشيخ الفقيه الثقة الوحيد الأفضل الأكمل أبو القاسم بن مخلص نفعه الله تعالى بفضله الحمد لله الواحد الصمد، المنفرد بالعزة والبقاء، والقدرة والشاء، الذي لا من شيء كَوْن ما خلق، قدرة منه جاهزة، فليست له صفة تنال، ولا حد يضرب له الأمثال، قال لما شاء كن فكان، فابتدأ الخلق على غير مثال سبق، بلا تعب ولا نصب، الذي خلق الإنسان من طين، ثم يعيده إليه ثم يخرج منه كما كان ليحيا فيه، فهو المبدئ المعيد، لم يفتقر سبحانه في إيجاد الموجدات إلى مشيرٍ ولا معينٍ، أوجد عن كلمة كن من دخل في دائرة التكوين، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبينٍ، أحاط بكل شيء لما أحصى كل شيء عدداً وكيف لا وهو منشئه، ألا

(1) تتكون النسخة المخطوطة الوحيدة المتوفرة لحد الآن ضمن محفوظات الخزانة الحسنية من مائتين وستة وثلاثين (236) لوحة، وهي تامة وسليمة، اللهم بعض الخروم الطفيفة في اللوحة الأولى والأخيرة لم تؤثر في مقدمة الكتاب ولا خاتمته، كتبها المؤلف بخط يده ودجها - رحمه الله - بخط مغربي مبسوط، والكتاب تحت الطبع من عناية عبد ربه.

(2) للمزيد من المعلومات التقنية والفنية عن المخطوط، ينظر: المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية، خالد زهري، ص 267 - 268.

(3) الورقة الأخيرة من المخطوط.

يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، لم يزل تعالى بصفات الجلال والكمال، وكل اسم من أسمائه لا يخلو من إثبات ما يجب له تعالى ونفي ما يستحيل عليه من صفات خلقه...⁽¹⁾

وينتهي ب : .. والبعث إثارة البارک والنائم عن مكانه، ونشر الميت كبعث النائم، ولكنه كان ذلك الموت عقوبة لهم على ما قالوا، قال الزجاج: الآية احتجاج على مشركي العرب الذين كفروا بالبعث، فاحتج النبي صلى الله عليه وسلم بإحياء من بعث بعد موته في الدنيا فيما يوافقه اليهود والنصارى فيه. وقوله: [البقرة:55] أي نعمة البعث، من تفسير الواحدي رحمه الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسيماً، والحمد لله رب العالمين".²

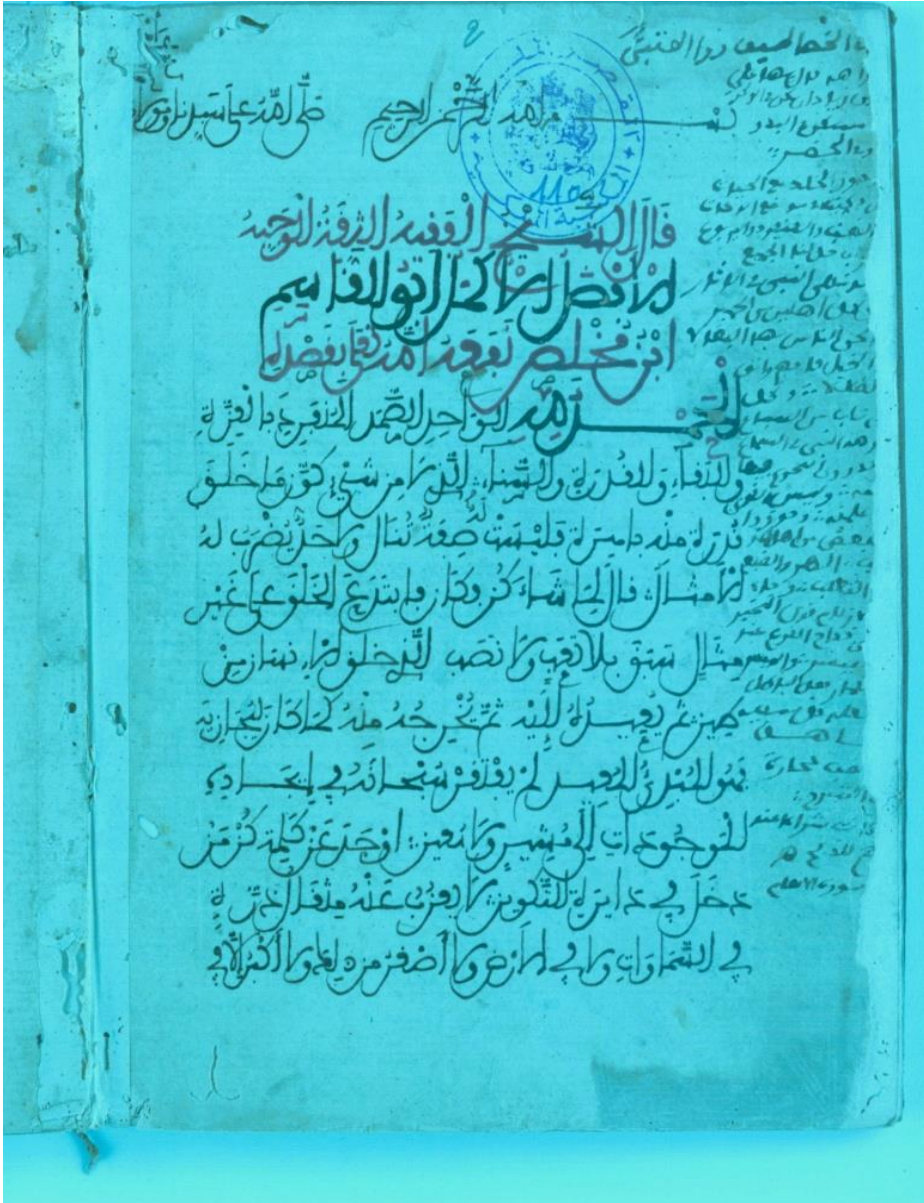
(1) الورقة الأولى والثانية.

(2) الورقة الأخيرة

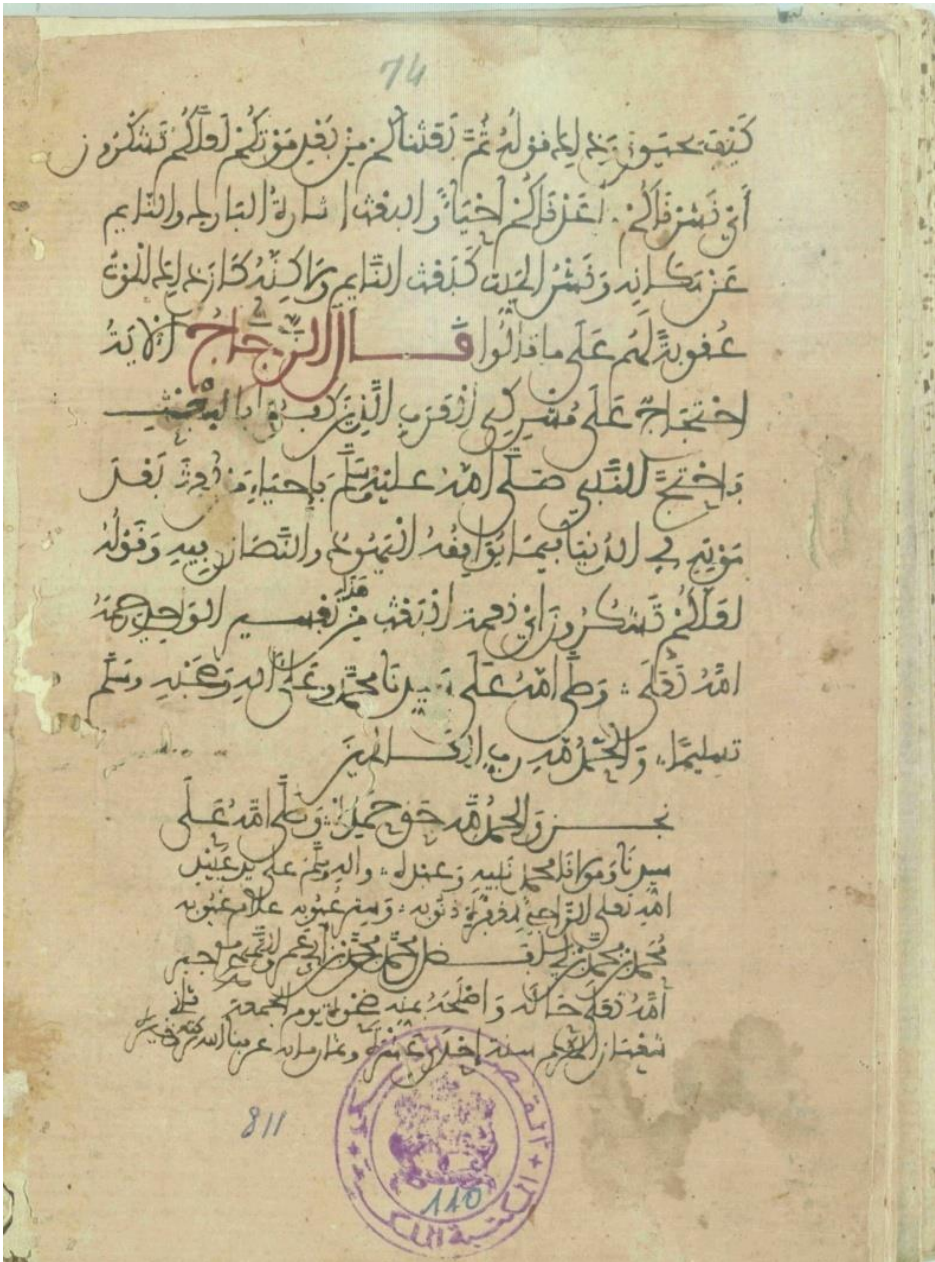
المخطوط العقدي في سبعة خلال القرن الثامن الهجري "الاستدلال

د. عبد الصمد بوذياب

على بعث الأجسام بأعيانها" لابن مخلص أنموذجاً



الورقة الأولى من المخطوط



الورقة الأخيرة من المخطوط

سياق التأليف وسببه.

يظهر بجلاء من سبب التأليف وسياق كتابة المصنف لهذا المخطوط أن حلقات الدرس العقدي كانت لا تزال نشطة في هذه الفترة رغم دنو زمن السقوط.. بل ربما التهديد بالسقوط هو الذي أحيا هذه الإشكالات التي لم تكن تثار من قبل العوام فقط، بل من قبل علماء لهم مكانتهم وطلابهم وحلقات درسههم.. كما يشير لذلك المؤلف بقوله: " سمعت عن بعض من ينتحل العلم أنه نقل في مجلس تدريسه عند كلامه على البعث، أن كيفيته: بعث أجسامٍ آخر غير هذه، تُكسها الروح وتُعذب فيها أو تُنعم، أعادنا الله تعالى من زلة عالم، فإنها تُضل كثيراً من الناس"¹

لم يذكر المؤلف من الذي صدر منه الإشكال ولا تاريخه.. واكتفى فقط بالإشارة إلى أوصافه، إذ الأهم هو التركيز على الإشكال وحله، بغض النظر عن قائله والمثير له، ورغم أنه وصفه في البداية ب"منتحل صفة العلم"؛ إلا أن عاد ووصفه بصاحب "مجلس تدريس.." وبالعلم الذي تخشى زلته، مما يؤكد أن الرجل كان له تأثير، ولكلامه رواج، ومجالسه رواد..

كما يظهر أن ابن مخلص - رحمه الله - كان متابعاً ومتفاعلاً ومهموماً بالإشكالات العقدية في زمانه، وأن الناس - أيضاً - كانوا ينتظرون البيان والتوضيح منه..

- منهج ابن مخلص في المخطوط وعرض مضامينه.

قارب ابن مخلص - رحمه الله - الموضوع من المدخل الشرعي، وقّره بأسلوب سهل وبسيط؛ كي يستفيد من كلامه عموم الناس، وتُصان عقيدة عوام المسلمين، وهي الطريقة نفسها الذي اتبعها المؤلف في تفسير آية العقائد المشار إليه سابقاً. (2)

(1) الورقة. 03

(2) جمع المصنف في كتابه الآخر " أدلة التوحيد" كل آيات العقيدة في القرآن الكريم، ورتبها وفسرها وبين المشكل منها، ووضعها بين يدي الدارسين والمكلفين في تصنيف واحد جامع لما تفرق عند المفسرين، بعبارة سهلة وميسرة، وفي جمل مختصرة مركزة، فكان الكتاب فريداً في باب طريفاً في صناعته..، حيث يعتمد المؤلف بدايةً إلى الآيات التي يراها تدخل ضمن مقاصد كتابه فيفسرها، ثم في نهاية السورة يقوم بجد أسماء الله الحسنى الواردة في تلك السورة ويخصها بمزيد من الشرح والبيان، بأسلوب بسيط وميسر..

فبعد مقدمة للمؤلف بين فيها الإشكال باستفاضة، مهدد - رحمه الله - للموضوع بجملة من الأحاديث النبوية التي يرى أنها ملزمة في فهم النصوص العقدية وتفهمها، وأن على المتصدرين للعلم استحضارها وتناول المواضيع انطلاقاً منها، من ذلك حديث: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين".⁽¹⁾

ثم عقد المؤلف لمقاربة الموضوع فصولاً سبعة انطلق فيها من الآيات والأحاديث التي أصّل بها لما عليه جمهور أهل السنة والجماعة من اعتقاد بعث الأجسام حقيقةً وبعينها لا غيرها، داعماً ما شرح به تلك الأدلة، بنصوص لأئمة وعلماء تؤكد ما ذهب إليه في فهمها.

بدأ فصول المخطوط السبعة بحكاية الإجماع على بعث الأجسام بعينها في الفصل الأول،⁽²⁾ ثم استدل على ذلك بفصول أخرى، منها ما ذكره في الفصل الثاني من الاستدلال بما أبان الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام في كيفية إحياء الموتى كما في قوله تعالى: [مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَوْ جُفِيَ عَنْهُ أَمْرُهُ قَدْ كُنَّا شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَخُونُونَ] (البقرة: 259) وأيضًا ما ذكره في الفصل الثالث من الاستدلال بقصة إحياء صاحب البقرة المشار إليه في الآية: [وَقَدْ كُنَّا يَوْمَئِذٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَخُونُونَ] (البقرة: 72) [42]

(1) الورقة: 06 – 07، وللمزيد من البيان عن الحديث ومعانيه ينظر: "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" لابن عبد البر الأندلسي (1/ 59)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، ومحمد عبد الكبير البكري، منشورات وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام: 1387 هـ

(2) الورقة : 07 .

(3) الورقة : 24.

(4) الورقة : 29.

على هذا سار المؤلف في باقي فصول المخطوط يورد الآيات والأحاديث ويدعم شرحه لها بنقول ونصوص لعلماء لهم الوثوقية المطلوبة في الترجيح والحجاج، وإلى ذلك أشار بقوله بعد ذكره سبب التأليف: " فاستعنت بالله تعالى على أن أجمع ما لأئمة السنة والجماعة في ذلك مختصراً عن معتقد الحق، مداره على الكتاب العزيز وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتب الصحاح عن الأئمة المشهورين".¹

وقد وصف الدكتور خالد زهري الكتاب بأنه: " من أهم الكتب الكلامية التي ناقشت مسألة البحث الجسدي بالأدلة النقلية والعقلية التي تثبت قول أهل الحق من أهل السنة والجماعة، وهو القول بالبعث الجسدي، وتضليل القول بخلاف ذلك، أي القول بالبعث الروحي دون الجسدي، وهو مذهب الفلاسفة وبعض الطوائف الإسلامية المنحرفة".²

وذكر أن أهم مسألة ناقشها ابن مخلص في الكتاب هي: "دعوى أن كيفية البعث، إنما تكون ببعث أجسام أخرى تكساها الروح، وتعذب فيها أو تنعم".³

وكل ذلك تناوله المؤلف - رحمه الله - بأسلوب سهل وبسيط؛ كي يستفيد منه عموم الناس وخواصهم، وتُصان به عقيدتهم، وهي الطريقة نفسها، والأسلوب ذاته الذي اتبعه المؤلف في تفسير آية العقائد في الكتاب المشار إليه سابقاً.

(1) الورقة: 04.

² المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية، ج 01 ص 68.³ نفسه، ج 01 ص 68.

مصادر المؤلف في المخطوط ومراجعته.

اعتمد ابن مخلص -رحمه الله- في استدلاله على "بعث الأجسام" حقيقةً وبعينها، - بعد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية - على مجموعة من العلماء منهم البيضاوي، وابن أبي زيد القيرواني، وأبو الوليد الباجي، وغيرهم، لكنه أكثر من النقل عن الإمامين: الواحدي في "الوسيط في تفسير القرآن المجيد" وابن عطية في "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

واختاره النقل أكثر على المصدرين المذكورين؛ لكونهما الأقوى حضوراً في الحقل العلمي والتداول

المعرفي، والأكثر قبولاً عند المتلقين والدارسين في زمانه.

فبالنسبة للإمام الواحدي -رحمه الله- يشرح ابن خلكان (ت 681هـ) -القريب زمانه نسبياً من ابن مخلص- مكانته وحضور تصانيفه في الحياة العلمية في تلك الحقبة في سبته والغرب الإسلامي عمومًا فيقول: "صاحب التفاسير المشهورة؛ كان أستاذ عصره في النحو والتفسير، ورزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها، وذكرها المدرسون في دروسهم، منها: "البسيط" في تفسير القرآن الكريم، وكذلك "الوسيط" وكذلك "الوجيز" ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب "أسباب النزول" و"التحجير في شرح أسماء الله تعالى الحسنی" وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي شرحاً مستوفى، وليس في شروحه مع كثرتها مثله".⁽¹⁾

هذا عن مكانة الواحدي في المغرب، أما في الشرق فيقول ابن تيمية (ت 728هـ) - الأقرب زماناً لابن مخلص من ابن خلكان - عن إعجابه به سيما تمكنه من اللغة وعلومها رغم اختلاف مذهبهما العقدي: "وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية".⁽²⁾

(1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج 03 ص 303 . إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: الجزء: الأول الطبعة: 1900م.

(2) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج 13 ص 386 . تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية 1416هـ/1995م.

إذا؛ فمكانة الواحددي وعلو سنده وقربه من القرون الثلاثة (ت 468هـ)، وجمعه في تفاسيره بين التفسير بالأثر والتفسير بالرأي واستخدام اللغة ومدلولاتها في الترجيح؛ هو الذي جعله مصدراً موثقاً للتفسير في زمن ابن مخلص وقبلة وبعده، فقد امتلأت كتب التفاسير بالنقل عنه في كل الأزمان، كما هو الحال مع تفسير البغوي (ت 510هـ) والرازي (ت 660هـ) وأبوحيان (ت 745هـ) وابن القيم (ت 751هـ) وابن رجب (ت 795هـ) والبقاعي (ت 885هـ) والسيوطي (ت 911هـ) والشوكاني (ت 1250هـ) وغيرهم.

كما رجع إلى كتب الواحددي -رحمه الله- أغلب محققي التفاسير؛ لتخريج الأحاديث وعزو الأقوال وبيان الروايات، ومنهم: عبد الله محمود شحاتة في تحقيقه لـ "تفسير مقاتل" وأحمد شاکر في تحقيق "تفسير الطبري" وغيرهم.

أما كتابه "أسباب النزول": فكان أغلب من جاء بعده ناقلاً عنه ومعتمداً عليه في أسباب النزول وفي علوم القرآن الأخرى عموماً.

واختار ابن مخلص -رحمه الله- من تفاسير الواحددي الاعتماد في بيان المسألة على "الوسيط" أكثر من غيره لتوسطه في العرض بين الإطالة في "البسيط" والاختصار في "الوجيز"، والله أعلم.

أما سر اعتماد ابن مخلص على الإمام ابن عطية -رحمه الله- وتقدم رأيه في بيان الآيات التي استدل بها: فيكفيها في ذلك ما قاله ابن خلدون - المعاصر لابن مخلص - عن مكانة هذا التفسير وحضوره القوي وكيف كان أهل الشأن ينظرون إليه في ذلك الزمان: "...وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود، والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإثماً يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يختاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال

ذلك، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتألت التفسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض بأخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصّحة التي يجب بها العمل، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات.

وأصلها كما قلناه عن أهل التّوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صبتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فثُلّثت بالقبول من يومئذ، فلمّا رجع الناس إلى التحقيق والتّحصيل وجاء أبو محمّد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفسير كلّها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصّحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى، وتبعه القرطبي في تلك الطّريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق⁽¹⁾.

هكذا كان ينظر للتفسير المؤلفة في زمن ابن مخلص رحمه الله، وهذا علّه هو سبب اختياره النقل عن الإمامين المذكورين أكثر من غيرهما في تفسيره للآيات البعث والنشور التي ساقها لبيان الموضوع ومناقشته. خاتمة.

إن المخطوط في سبته بشكل عام، والمخطوط العقدي والكلامي على الخصوص، في حاجة إلى مزيد من الدراسات والتنقيب من أجل إضاءة الروايات المظلمة، والوصول إلى الكنوز والجواهر المفقودة، من المؤلفات التي تفرقت في الآفاق بعد سقوط سبته واحتلالها.. وفي هذا السياق كانت العناية بهذا المخطوط، مخطوط "بعث الأجسام" الذي أسأل الله تعالى أن ييسر إخراجته وجعله رهن إشارة الباحثين والدارسين قريباً، كما أرجوا أن يقيض الله من يتصدر للبحث في سبته ومخطوطاتها، وإضافة لبنات أخرى لما كتب عنها، وما ذلك على هذا الجمع المبارك بعزير.. والله تعالى أعلى وأعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، ج 01 ص 554-555، ابن خلدون. تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1408 هـ 1988م.

المصادر والمراجع.

- 1) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثانية، 1416 هـ 1966 م.
- 2) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424 هـ..
- 3) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقرئ. تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1358 هـ 1939 م.
- 4) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" لابن عبد البر الأندلسي، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، منشورات وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام: 1387 هـ..
- 5) الحركة العلمية بسبته خلال القرن السابع، إسماعيل الخطيب، كتبة الهداية تطوان، الطبعة الثانية: 1432 هـ 2011 م.
- 6) الحسام الممدود في الرد على اليهود" .. أبو محمد عبد الحق الإسلامي المغربي السبتي، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ 2001 م.
- 7) الديباج المذهب لابن فرحون. ابن فرحون، تحقيق: الدكتور محمد الأحدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة بدون تاريخ.
- 8) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، ابن خلدون. تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1408 هـ 1988 م.
- 9) الرحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من ق 3 إلى 9 هـ لآمنة سليمان البدوي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية. والاجتماعية المجلد 41، العدد 02 السنة 2014 م.

- 10) رحلة ابن خلدون (ت 808هـ) "عناية: محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004م .
- 11) سبته في تاريخ المغرب القديم والحديث، من مجلة دعوة الحق العدد: 27.
- 12) الفهرس الوصفي لخزانة المسجد الأعظم بوزان،. إنجاز بدر العمراني ومحمد سعيد الغازي إشراف عبد اللطيف الجيلاني منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. بالمغرب الطبعة الأولى 1429 هـ 2008م
- 13) أنجح الوسائل في شرح الشرائع للترمذي"، لابن مخلص، مخطوط بخزانة المسجد الأعظم بوزان، رقم : 284.
- 14) مجموع الفتاوي ، ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية 1416هـ/1995م.
- 15) المصادر المغربية للعقيدة الأشعرية. إصدارات مركز أبي الحسن الأشعري بتطوان، التابع الرابطة المحمدية للعلماء، الطبعة الأولى: دار الأمان، 1438 هـ 2017م.
- 16) النبوغ المغربي، عبد الله كنون. الطبعة الثانية 1962م بدون اسم دار النشر.
- 17) نفح الطيب للمقري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1968م.
- 18) ورقات عن حضارة المرينيين لمحمد المنوني ، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 1420 هـ 2000م.
- 19) ورقات عن حضارة المرينيين، محمد المنوني، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 1420 هـ 2000م.
- 20) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان . إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: الجزء: الأول الطبعة: 1900م.